المبحث السابع

اعتذار المعذرين من الأعراب إلى النبي صلى الله عليه وسلم

بعد بيان اعتذار أولوا الطول والسعة من المنافقين . كما سبق في المبحث الذي قبله . شرعت الآيات في بيان اعتذار الأعراب[1] ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٠﴾[التوبة:90]، وقد اختلف المفسرين في اعتذار الأعراب، هل كانوا صادقين في اعتذارهم معذورين في تخلفهم، أم كانوا كاذبين محتالين كمن سبقهم من المنافقين؟ ومدار الاختلاف في ذلك اختلافهم في القراءات، فهناك من قرأ (المعذرون) بالتشديد (المعذّرون) وآخرون بالتخفيف (المعذَرون)، والمشددة لها تفسيران:أحدهما- من (عذر في الأمر) إذا قصر فيه وتوانى، فتكلف العذر، فعذره باطل، والثاني- من (اعتذر) ، وهو محتمل لأن يكون عذره باطلا وحقا، وأما التخفيف فهي من (أعذر) إذا كان له عذر، وهم صادقون على هذا، وهي قراءة ابن عباس، وهناك من المفسرين من رجح قراءة التخفيف، منهم الطبري وابن كثير، يقول الطبري:" وإنما صفتهم أنهم كانوا قد اجتهدوا في طلب ما ينهضون به مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدوهم، وحرصوا على ذلك، فلم يجدوا إليه السبيل، فهم بأن يوصفوا بأنهم: (قد أعذروا)، أولى وأحق منهم بأن يوصفوا بأنهم (عذَّروا)، وإذا وصفوا بذلك فالصواب في ذلك من القراءة، ما قرأه ابن عباس"،[2] ويقول ابن كثير:" قال الضحاك، عن ابن عباس: إنه كان يقرأ: (وجاء المعذَرون) بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر، وكذا روى ابن عيينة، عن حميد، عن مجاهد سواء، وهذا القول هو

---

[1] الأعراب اسم جنس والنسبة إليه أعرابي، والأعراب سكان البادية، وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب، وأول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان. * ومن طريف ما ذكر القرطبي أن الأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح والعربي إذا قيل له يا أعرابي غضب، والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب، وسميت العرب عربا لأن ولد إسماعيل نشئوا من عربة، فنسبوا إليها، وهي قرب مكة. الجامع لأحكام القرآن(1/ 283).

[2] جامع البيان (14/ 416).

الأظهر في معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال:(سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم)"،[1] وهناك من المفسرين من يرى أن الاختلاف في المعاني من إعجاز القرآن وبلاغته، ففي اختلاف الصيغتين بيان لاختلاف أحوال أولئك الأعراب في أعذارهم، فمنهم من له عذر صحيح هو موقن به، ومنهم من له عذر صوري لا حقيقي وهو يوهم أنه حقيقي عالما بأنه مخادع، ومنهم من لا عذر له في الواقع فهو كاذب في انتحاله، وهذا من إيجاز القرآن العجيب بالإتيان بلفظ مفرد يتناول هذه الأقسام كلها، وهكذا تكشفت معادن الناس في غزوة تبوك و انجلى أمر المنافقين، وتعبثر مكنون نفوسهم، بعد أن كانوا على باطن لا يدرى إلا الله ما ينطوي عليه.

وبعد أن بين الله تعالى اعتذار المنافقين من أهل السعة واليسار، واعتذار الأعراب، بين سبحانه بعد ذلك أهل الأعذار الذين لا حرج عليهم في الاعتذار عن القتال، فذكر منهم من يكون عذره لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يثبطوهم، ومنهم من يكون عذره عارض بسبب فقره كالذين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون ما يحملهم عليه، لكنهم لم يجدوا ذلك فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع أسفاً على عدم قدرتهم على تلبية نداء الله في الجهاد.[2]

شذرات في اعتذار المعذرين من الأعراب:

1. يظهر والله أعلم أن المراد بالمعذرين هم أهل الأعذار الصادقة، كما ذهب إلى

---

[1] تفسير القرآن العظيم (198/4).

[2] ينظر: جامع البيان(14/ 416)، مفاتيح الغيب(16/ 120)، الجامع لأحكام القرآن(8/ 224)، محاسن التأويل (5/ 476)، تفسير المنار (10/ 504).

ذلك الطبري وابن كثير كما وضحناه، والمتأمل في الآية يجد أن آية المعذرون عطفت على آية أولوا الطول، والعطف يقتضي المغايرة، لذلك تميل النفس إلى أنهم أهل الأعذار الصادقين، كما أن مقابلة المعذرون بالذين كذبوا بالله ورسوله يدل على ذلك و قد ذكر ذلك ابن كثير، ولا مانع أن يكون ذلك من إيجاز القرآن و بلاغته، يقول ابن عاشور:" ويجوز أن يكون اختيار صيغة المعذرين من لطائف القرآن لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه".[1]

2. نلاحظ من خلال مباحث اعتذار المنافقين . على القول بأن المراد من المعذرين أهل الأعذار الكاذبة . أن الله عز وجل حدد منافقي الأعراب بالذكر؛ لأن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، نظراً لجفاء طبعهم وقسوة قلوبهم.

3. أن أهل الأعذار الصادقة يرتسم على محياهم أثر صدقهم، فهؤلاء النفر الذين لم يجد النبي صلى الله عليه وسلم ما يحملهم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع، حتى لقد جاء تسميتهم بالبكاؤون.[2]

4. كما نلاحظ ورود الاعتذار في سورة التوبة في حال الحرب، وقد ورد في سور أخرى في حال السلم والاستقرار، إشارة إلى ملازمة الاعتذار للإنسان على غالب أحوال حياته.

---

[1] التحرير و التنوير (292/10).

[2] البكاؤون، كانوا سبعة من الأنصار وغيرهم.جامع البيان(14/ 423).